

نَصِيْحَةُ الْمُلُوكَ

الدُّكْتُورُ اَحْمَدُ طَلَوْبَ

(عضو المجمع)

الماوردي أحد أعلام العراق في القرن الخامس للهجرة ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المنسوب إلى بيع ما الورد وعمله . ولد في البصرة سنة ٣٧٤ هـ وتوفي في بغداد سنة ٤٥٠ هـ وصلى عليه تلميذه الخطيب البغدادي . درس الماوردي على شيوخ عصره كأبي القاسم الصميري وأبي حامد الإسفرايني وأبي محمد عبد الله البخاري ، وروى الحديث عن الحسن بن علي الجibli ومحمد بن عدي المقرئ ومحمد بن المعلى الأزدي وجعفر بن محمد البغدادي . وتتلذذ عليه كثيرون منهم : الخطيب البغدادي وعبد الملك بن ابراهيم المقدسي ومحمد بن أحمد الربيعي ، وروى الحديث عنه كثيرون منهم : عبد الواحد بن عبد الكرييم وأخوه عبد الرحمن وعلي بن سعيد العبدري وعبد الغني ابن نازل المصري وأحمد بن علي الحلواني .

وللماوردي كتب متنوعة هي :

- ١ - تفسير القرآن المسمى : التكث و العيون .
- ٢ - الخاوي الكبير في الفروع في الفقه الشافعي في ثلاثة وعشرين مجلداً في بعض النسخ وثلاثين مجلداً في بعضها . وقد طبع منه جزآن باسم « أدب القاضي » .

- ٣ - أعلام النبوة .
- ٤ - الأحكام السلطانية .
- ٥ - أدب الدنيا والدين .
- ٦ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر .
- ٧ - أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة الملك .
- ٨ - الأمثال والحكم .
- ٩ - معرفة القضايائل .
- ١٠ - الحسبة .
- ١١ - الاقناع في الفقه الشافعي .
- ١٢ - كتاب في البيوع .
- ١٣ - كتاب في التحو .
- ١٤ - كتاب الكافي .
- ١٥ - نصيحة الملوك .

وبعض هذه الكتب مطبوع وبعضاها مخطوط أو مفقود (١) .

وكتاب « نصيحة الملوك » أحدث ما صدر لاماوري (٢) ، وهو موجه إلى الملوك لأنهم « أولى الناس بأن تهدى إليهم النصائح وأحقهم بأن يخولوا بالمواعظ ، إذ كان في صلاحهم صلاح الرعية وفي فسادهم فساد البرية » (٣) .

والكتاب في عشرة أبواب :

الأول : في الحث على قبول النصائح .

الثاني : في الإبانة عن جلالة شأن الملك والملوك وما يجب عليهم أن

(١) تنظر هذه الكتب في تقديم أدب القاضي ج ١ ص ٤٣ - ٦٤ ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص ١٦ بتحقيق الدكتور محبي هلال السرحان ، وتقديم نصيحة الملوك ص ١٣ .

(٢) حفظه الاستاذ محمد جاسم الحديشي واصدرته وزارة الثقافة والاعلام سنة ١٩٨٦ .

(٣) نصيحة الملوك ص ٤٣ .

يأخذوا به أنفسهم من الخلال التي تشكل منازلهم وتضاهي مراتبهم .

الثالث : في الخلال التي من جهتها يعرض الفساد في الممالك والملك .

الرابع : في فضول من الموعظ التي ينتفع بها ويعالج بها قساوة القلوب ويتداوى بها من أمراض الأهواء وانتقام الشهوات .

الخامس : في سياسة النفس ورياضتها .

السادس : في سياسة الخاصة من الأهل والولد والقرابة والخدم والجند .

السابع : في سياسة العامة وتدبير أهل المملكة .

الثامن : في تدبير الأموال وجمعها وتفريقتها .

التاسع : في تدبير الأعداء .

العاشر : في تقديم النبات وطلب التأويلات لكتير مما يجري بيانه على أيدي الملوك مما يكرره كثير من العلماء والعقلاء .

و ضمن الماوردي هذه الأبواب العشرة آراءه واحتاج لها بكلام الله - سبحانه - وحديث النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وسير الملوك الأولين والأئمة الماضيين والخلفاء الراشدين والحكماء المتقدمين فجاءت مؤيدة بالأسانيد الصحيحة والأخبار الموثقة . ووجه الماوردي كتابه الخافل بالنصيحة الى الملوك لأنهم «أحق من يهدى اليهم النصح» ولأنهم «أحق الناس بقبول النصيحة وسماع الموعظة» (٤) . وكل ما في الكتاب طريف يستحق الوقوف عنده طويلاً لأنه يعبر عن صدق المؤلف واخلاصه في تقديم النصيحة لأولي الأمر ليسعد المجتمع ويحيى حياة هائلة رغيدة توفرف عليه ألوية المحبة والخير والسلام . والفصل التاسع يصور هذا المترع خير تصوير إذ رسم الماوردي فيه تدابير أصحاب الجنايات ، ومن ذلك ابادة دم المشركين الذين يقاتلون على أصل التوحيد والنبوة والشريعة ، وأباية دم الباغين الذين يخرجون على المسلمين والأئمة العادلين ،

(٤) نصيحة الملوك ص ٥١ .

وعقاب قطاع الطريق ومحيفي السبيل . ويتصل هذا الفصل بسلامة الدولة واستقرار الأمن في الداخل ، لأن من أهم ما يقوم به السلطان المحافظة على سلامة المواطنين وتجنيبهم الفتنة التي تثيرها التحل والطوائف الخارجية على العقيدة وال ساعية إلى بث الفوضى ونشر الفساد . ويأتي بعده الدفاع عن الدولة وكيانها وترابها ، ويأخذ عدة مراحل أولها عرض السلم على العدو فلعله يجتمع لها ، فإن لم تفع هذه الدعوة كان الوعد والتحذير فإن لم يوجد الوعد كانت الحرب وهي مالا بد منه لدرء الأخطار وحماية الوطن من العدوان .

ومن أهم ما ينبغي تبيينه استعمال اليقظة في الحرب وترك التناوم والغفلة والاشغال بشيء من المللوات والملاهي والملاعب والمطارب ما لم يفرغ من الحرب ، وإن يجعل السلطان على العدو عيونا راقبة وأذانا واعية لتعجتمع خصال جليلة هي أزمة تدبير المروب :

١ - أن يطلع على ما يحدّثه العدو من مكيدة أو يضمره من خديعة أو يجمعه من مبaitة فيأخذ من ذلك حذر ويعده له عدته ولا ينال منه غرة ولا يصاب منه غفلة فيهلك .

٢ - أن يتهز منه الفرصة .

٣ - أن يقف على عدد العدو وعدته وآلته .

٤ - أن يقف على رسوم العدو في وقائعهم ، فمن الأعداء من رسمه في ذلك المغالبة بحملة أو حملتين أو ثلاثة ثم يوفي إذا لم ينقد له ما يريد .

ويأتي بعد ذلك تعهد أمير الجيش في الحال والترحال ، وإن ينزل العسكري في أحسن المواقع وأوثقها وأنحفها لمؤنه ولذلك :

١ - إن لا ينزل متولا وينبع العسكرية حتى يعرف طرفه .

٢ - إن تكون مواقع العسكرية متلاصقة متداشة .

٣ - إن تكون لهم أسواق يجدون فيها مالا بد لهم منه .

- ٤ - أن يكون لكل باب من أبوابهم قائد جلد .
- ٥ - أن يحيط بهم خندق .
- ٦ - أن لا تكون الأسلحة بعيدة عن أيديهم حتى كأنهم قد أظللهم العدو وأضطرهم للدفاع .
- ٧ - أن تنتشر الطلائع في الطرق وأن يطوف غير واحد من الأشداء على العسكر لتفتيش على الأسلحة وأخذ الأهبة والاستعداد للقتال .
- ٨ - أن يكون المعمول عليهم في الحرب قريين من السلطان ليجيئوا بهم في أقرب وقت وأسرعه .
- ٩ - أن يحافظ على القيم الخلقة ثلاثة يحدُث الفساد .
- ١٠ - أن لا يتزلل السلطان حتى يتزلل أهل عسكره ويطوف حول العسكر ويأمر بسد ما يرى من الخلل واصلاح ما يجب اصلاحه . . . ويستمر الماوري في عرض ما يحتاج إليه السلطان في زمن الحرب ، ومن ذلك :

 - ١ - أن يقاس بينه وبين عدوه من حيث الأمة والمكان والعدد والعدة .
 - ٢ - أن يكون أحقر الناس على كتمان السر وتقديم الحيلة على القوة .
 - ٣ - أن يحسن اختيار رسالته ومبوعاته .
 - ٤ - أن لا يلقى حرباً بنفسه .
 - ٥ - أن يشكر الله - عز وجل - إذ فتح عليه ونصره .
 - ٦ - أن يتفقد جيشه بتفقد أحواههم ويأمر بمداواة جرحاهم ويتبرأ من مرضاهم ودفن قتلاهم وابدال ما ينفق من عذتهم وسلامتهم ويكتفي ويعول ورثة قتلاهم وموتاهم .

وهذه من الأصول الجليلة في مثل هذا الموقف ، وهي لابد منفصية إلى عزة الدولة وأعلاء شأنها ، وهي « تمام ما يستعان به على كسر الأعداء وأذلاهم واعزاز الأولياء وانعاشهما ، وهي كلها من أوامر الله تعالى في الدين وأفعال

الأئمة المهدىين والخلفاء الراشدين » (٥) .

ويطوف الماوردي في كتابه مسديا النصيحة حائلاً على الالتزام بأوامر الله ونبيه الكريم والخلفاء الراشدين وأولي الأمر الصالحين . ولا يقتصر على القضايا السياسية والعسكرية وإنما يعرض لموضوعات مختلفة تنفع السلطان في إدامة ملوكه وحفظه من عاديات الزمان . ومن ذلك السياسة الخاصة بثقافة الأولاد كاختيار الاسم الحسن للمولود وجهة اختيار الاسم وتعليم الولد القرآن واللغة وحفظ الولد أخبار المغازي والسير واختيار المعلم والمؤدب وتأكيد صلة الأقارب وذوي الرحم .

والماوردي يولي اللغة العربية اهتماماً كبيراً لأنها لغة القرآن الكريم وكانت أقوى موحد للعرب في كل العصور . وقد وضع أساس تعلمها لأن علم اللغة « لا تستغني عنه فرقه من هذه الفرق وأهل نحلة من هذه التحل إذا أراد أن يكون كاملاً في صناعته وفاضلاً في دينه ومذهبه ومقالته إذ بها يعرف نظم كلام الله وآثار رسوله ويقف على معاني خطابه ومعاني كتابه » (٦) . والقاعدة الأساسية في تعلم اللغة أن يُبتدأ بها عند الخداثة وعنفوان الشباب وفراغ القلب « وأن يقصد إلى الأخف فالأخف من كتبها والأسهل فالأسهل من مؤلفاتها ومصنفاتها » وان لا يشغل الناشيء بالغريب الوحشي والتادر الأجنبي ، ولا بدقةائق النحو ودواين العروض ، فإن ذلك مما يشغل عن المعاني ، وأن يتعلم الألفاظ قصداً إلى معرفتها فإذا أفنى الإنسان عمره في تعلم الألفاظ فإنه المعاني إلا أن يكون ذلك لمن يجعله صناعة مثل الأدباء والمؤدبين والمعلمين من النحويين . ويحتاج في الاستعارة على تعلم اللغة إلى رواية أشعار العرب وأيامها وأخيارها ، والصواب في تدبير ذلك أن تروي له وتعلمه ، ويحفظ الأشعار الحكمة التي ضمنت الحكمة والتوحيد والدين والبعث على العلم والزهد

(٥) نصيحة الملوك ص ٥٢٠ .

(٦) نصيحة الملوك ص ٢١٦ .

نصيحة الملوك

والشجاعة ومكارم الأخلاق دون التي يذكر فيها الزنى والتجميس والعشق والفحش والأهاجي التي فيها قذف المحسنات وذكر العورات لينشأوا على معرفة الفضائل ومحبة نيل المادح نشوء ، ويعتادوها عادة في المجتمع في ذلك فائدة الصالحة والبيان ومعرفة المبتذر من الكلام وكثيراً من الغريب والوقوف على المعاني الفاضلة » (٧) . فالماوردي يؤمن بالتدريج في تلقين العلم والانتقال به من مرحلة إلى مرحلة بحسب سن الولد ، ويبحث على تعلم اللغة الفصيحة بعيدة عن الألفاظ الغريبة ، وانقان الضروري من النحو وما يقوم به اللسان ، ويدعو إلى تعلم الأشعار الحكيمية التي تؤكد الخلق والرجولة ، والابتعاد عن الشعر الماجن الذي يبحث على الفسوق ويحب الخروج على القيم الرفيعة لينشأ الولد وقد عرف الصالحة والبيان وتجنب المبتذر من الكلام . ويؤكد الماوردي الفرق بين التخصص والتعلم ، فال الأول يحتاج إلى ثقافة لغوية و نحوية وأدبية واسعة لأنها صنعته ، والثاني يحتاج إلى ما يقوم لسانه – وهذه النظرة العميقه تعدّ من أصول التربية والتعليم ، وقد أكدّها المفكرون العرب والمسلمون قدّيماً كالإمام الغزالى في « إحياء علوم الدين » ورجال التربية والتعليم في هذا العصر .

إن سعة أفق الماوردي واتصاله بالحياة الفكرية والسياسية في عصره واسهامه في الحياة العامة فتحت السبيل أمامه فوضع كتاب « نصيحة الملوك » ليكون دليلاً عملاً لا للسياسيين والقادة فحسب ، وإنما للمثقفين عمامة ، والكتاب لا يزال محفوظاً بكثير من القيم والاصول على الرغم من تقادم عهده ، وقد أحسن صنعاً الاستاذ محمد جاسم الحديشي حينما حققه وأنخرجه للناس سفراً يروي عن الماضي ويتحدث في الحاضر والمستقبل . وللكتاب مخطوطة فريدة محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس برقم (٢٤٤٧) وهي كاملة في (١٩٠) ورقة) مسطرتها ٢٢ - ١٥ وقد كتبت بخط النسخ عام ١٠٠٧ هـ ، أي

(٧) نصيحة الملوك ص ٣٠٥ - ٣٠٦

أنها متأخرة عن زمن المؤلف . وبذل الاستاذ المحقق جهداً عظيماً في اخراج هذه المخطوطة وقدم للكتاب بعبداً تحدث فيها عن حياة الماوردي وآثاره ومكانته العلمية وأفاض في تحليله فتعرض لمن ذكره ، وهدف المؤلف ومصادره ومواضيعات الكتاب ومخطوطته النادرة . وتكلم على منهجه في التحقيق وما بذل من جهد يتجلى في :

- ١ - ان المحقق وضع مقدمة للكتاب ليست بالموجزة ولا بالمسهبة ليلقي ضوء على الماوردي وكتابه « نصيحة الملوك » .
- ٢ - انه ضبط النص ضبطاً دقيقاً .
- ٣ - انه رجع الى المصادر الكثيرة التي أعاشه على التحقيق وتوثيق النصوص ، وقد بلغ عددها ٣٠٧ كتاب غير الذي راجعه ولم يثبته في الهوامش .
- ٤ - انه عني عنابة فائقة بتأريخ الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة والأشعار المروية .
- ٥ - انه وضع مسارد تفصيلية للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية والاعلام ومصادر التحقيق ومحفوظات الكتاب .
- ٦ - انه وضع عناوين جانبية تدل على المعنى ، وقد وفق في ذلك وجاءت العناوين دقيقة ذات ففع كبير .

وهنالك بعض الملاحظات لا تقلل من الجهد العظيم الذي بذله المحقق في اخراج الكتاب بصورة الزاهية ، ومن أبرزها :

- ١ - وقوع بعض الأخطاء المطبعية واللغوية في المقدمة ونص الكتاب (٨) ، وهو ما لا يسلم منه مطبوع .
- ٢ - ان توثيق الكتاب يحتاج الى وقت أطول إذ لم يذكره القدماء ضمن آثار الماوردي ، وذكره المتأخرون كمحاجي خليفة في « كشف الظنون »

(٨) ينظر نصيحة الملوك ص ٢١ - ٢٣ ، ٧٩ ، ٢٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٩ .

وبروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » وجرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » ومصطفى السقا في مقدمة « أدب الدنيا والدين » وخبير الدين الزركلي في « الاعلام » والدكتور عمر فروخ في « تاريخ الأدب العربي » والدكتور عزيز هلال السرحان في مقدمة « أدب القاضي » ومقدمة « تسهيل النظر وتعجيز الظفر » للماوردي . وكان من المفيد أن يشير المحقق إلى النصوص المشابهة التي جاءت في « نصيحة الملوك » وكتب الماوردي الأخرى ، ويعتمد عليها في توثيق الكتاب ونسبته ، وإن لم يكن هناك أدنى ريب في أن الكتاب للماوردي روها وفكراً ومادة وأشارات المحقق في هوامش « نصيحة الملوك » (٩) تعين على التوثيق بعد أن خلا الكتاب من أية إشارة إلى كتب الماوردي الأخرى .

٣ - إن المعجم القديم هو المرجع في معرفة الألفاظ الغربية ، ولا يستحسن الرجوع إلى معجم معاصر مثل « المعجم العربي الحديث - لاروس » و « المعجم الوسيط » اللذين قد يراجعان عند تغدر العثور على الكلمة في المعجم القديم ، أو حينما تكون الكلمة متأخرة أو مجمعية . وقد أحسن صنعاً الاستاذ المحقق حينما اعتمد على « لسان العرب » لابن منظور و « تاج العروس » للزبيدي وغيرهما من المعاجم المبوسطة في معظم عمله ، وهذا هو النهج الصحيح .

٤ - إن المحقق لم يقع على جميع النصوص الشعرية والترية التي ذكرها الماوردي (١٠) ، ولعله يعثر عليها ويدخلها في الطبعة الثانية . ولا يقلل هذا من الجهد العظيم الذي بذله في البحث عنها ، وهي قليلة جداً إذا ما قورنت بالنصوص التي خرجها في « نصيحة الملوك » (٤٢٥) آية قرآنية و (١٣٥)

(٩) ينظر نصيحة الملوك هوامش الصفحات : ٨٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٩، ٢٠٢، ٢١٢، ٢٢٢، ٢٤٧، ٢٧٠، ٢٧٤، ٣٣١، ٣٣٥، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٣٥، ٥٢٦، ٥٥١، ٥٥٨ .

(١٠) ينظر مثلاً ص ٧٧، ٩٠، ٩١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ .

حديثاً شريفاً و (٣٥٠) مقوله حكمية وأدبية و (١١٧) بيتاً شعرياً و (١٣٠) علمياً . وهذا العدد الكبير ينوع به أي محقق مهما راجع من كتب وبذل من جهد .

٥ - إن المحقق لم يرجع إلى المعجم القديم ليؤكد كلام الماوردي أن « السلطان في اللغة هو الحجة » وإن « **مَلِكٌ** يَسْمُّ **كَلَامَ الْمَأْوَرِدِيِّ** من **الْمَلِكِ لَا الْمُلْكَ** » (١) . وفي الرجوع إلى المعجم توثيق لكلام الماوردي الذي لم يكن فقيها أو سياسياً فحسب وإنما كان أدبياً لغويًا يحسن اختيار الألفاظ ، ويعنى باللغة العربية ورسوخ طرائق تعليمها .

٦ - إن المحقق رجع إلى معجم البلدان لياقوت الحموي وغيره من معاجم البلدان ، وهذا حسن لأن « نصيحة الملوك » من كتب القرن الخامس للهجرة وصلته بالتراثوثيقة . وحيثما لو زاد المحقق عليها معلومات حديثة لتكون قريبة من القراء الذين لا يعرفون كثیر منهم مصطلحات القدماء .

٧ - إن المحقق لم يذكر أسماء الشعراء والأوزان الشعرية في مسرد الأشعار ، وفي ذكرها زيادة في الفائدة والايضاح .

٨ - إن المحقق لم يشر في كتب الماوردي إلى أن « قوانين الوزارة وسياسة الملك » هو نفسه « أدب الوزير » اعتماداً على فطنة القاري ، والإشارة إلى ذلك مهمة في مثل هذا الموقف .

هذه بعض الملاحظات عنت لي وأنا أطوف في مروج خضر نشرها الاستاذ محمد جاسم الحديشي فكانت ظلاً ظليلاً . وييفى كتاب « نصيحة الملوك » للماوردي من أجل الكتب التراثية التي صدرت عام ١٩٨٦ ، ويظل جهد المحقق محموداً يقدر كل من عانى صنعة التحقيق وهو يتبع لفظة في عدة مصادر ويقضى فيها زماناً قد يقصر أو يطول . وقد يقال :

لا يعرف الشوق إلا من يكتبده ولا الصباية إلا من يعانيها

(١) نصيحة الملوك ص ٧٨ ، ٨٠